المبحث السابع

خليل مطران

شاعر العربية الإبداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكاديمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

الطور الثاني من حياة مطران

(توطئة) كانت مصر في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني (١٨٩٢ — ١٩١٤) ملتقى آمال شباب العرب وملجأ أحرار العثمانيين . ذلك أن مصر كانت قد نالت في ظل الاحتلال الإنكليزي شيئاً من الحرية ظهرت آثاره فيما كان يتمتع به المصريون في ذلك العهد من الحرية الشخصية التي لم يكن يتمتع بها المواطنون العرب والترك خارج مصر في ظل الدولة العثمانية . وقد هاجر الى مصر من سوريا ولبنان جمهور كبير في تلك الفترة من الزمن تخلصاً من الجو الخانق الذي تعيش فيه شعوب الدولة العثمانية ، وهو الجو الذي كان يخيم في سمائه شبح الاستبداد الحميدي . ذلك لأن هؤلاء المهاجرين لم يكن في استطاعتهم العمل في محيط بلادهم بحرية وفق رغائبهم وأمانيهم ، لأن التضييق كان ينال منهم من كل جهة . وقد أظهر هؤلاء الذين نزحوا الى مصر نشاطاً شمل مع الزمن جميع مناحي الحياة المصرية . غير أنه كان واضحاً في ساحات الحياة الأدبية والاجتماعية والتجارية المصرية . والواقع ان المصريين اليوم مدينون بجانب كبير من نهضتهم الحالية لنشاط هؤلاء النازحين الى مصر من سوريا ولبنان ، الذين اكتسبوا مع الزمن حقوق المواطن المصري ، وإن احتفظوا داخل المجتمع المصري بكيانهم

وكان يتجاذب هؤلاء اللاجئين الى مصر اتجاهان : الاتجاه الأول يتمثل في شعور الولاء نحو الخلافة والارتباط بفكرة الجامعة العثمانية ، مقترنين بالرغبة في الاصلاح . وكان هذا الشعور أكثر ما يظهر في جمهور المسلمين باعتبار مركز الخلافة في العثمانيين . ومن هنا كانوا مرتبطين

فكرة الجامعة العثمانية [١] . أما الاتجاه الثاني فكان يتمثل في شعور الانفصال عن الجامعة العثمانية مقروناً بالنقمة على الادارة التركية وحب التخلص منها والرغبة في إنشاء الوطن العربي وكان هذا الشعور يتركز في الغالب في جمهور المسيحيين من النازحين من سوريا ولبنان [٢]

وهكذا كانت مصر ملتقى الاتجاهين ومسرح العاملين في الحقلين : حقل الجامعة العثمانية وحقل الوحدة العربية . على أننا يمكننا أن نقول إن المجرى العثماني كان غالباً في مصر حتى إعلان الدستور في انحاء الدولة العثمانية عام ١٩٠٨ . وذلك يظهر واضح السمات في الآثار الأدبية لذلك الجيل

كان خليل مطران من أولئك الذين اضطروا الى مغادرة بلادهم تحت تأثير تضييق السلطات الحكومية . عاش في فرنسا مدة من الزمن حيث أصطدم بوجوه من التضييق جديدة كان بعضها سفير تركيا الذي هالهُ نشاط مطران في حفل الإصلاح للجامعة العثمانية . [٣] وهنا يقف مطران في باريس — عاصمة فرنسا — في المفرق بين الشرق والغرب : أيذهب غرباً حتى شيلي أم يعود شرقاً وينزل مصر ؟ وكان الفتى يعرف أن في ذهابه غرباً ابتعاداً عن الوطن ونأياً عن ميدان العمل في حقل الاصلاح الوطني . ولما كان هذا عزيزاً عليه ، فقد وقف متردداً يتجاذبهُ داقعان قويان : أحدهما يدفعهُ الى ترجيح فكرة الهجرة الى « شيلي » حيث المغريات والتسهيلات التي كانت تلوّح بها حكومة شيلي لشباب العالم القديم حتى تجذبهم إليها ، اما الدافع الثاني فقد كان يدفعهُ الى ترجيح فكرة سفره الى « مصر » ويردّه عن الهجرة إلى « شيلي » . وقد انتهى هذا التردد بمطران الى فكرة ثابتة هي ان يزح الى وادي النيل . ولم تكن مصر بالبلد الغريب عنهُ ، فقد كان فيها من عشيرته وقومه جالية كبيرة يمكنهُ ان يأخذ مكاناً لنفسه بينها ويستعين بالظاهرين من أفرادها للوصول إلى الاغراض التي كانت تراود أحلامه كأماني حياته

— ١ —

تحت تأثير هذه الفكرات خرج خليل مطران من باريس ووجهته مصر ، فوصل الاسكندرية صيف عام ١٨٩٢ . وقد تصادف ان كان وصوله لمصر مقترناً بوصول نبإ وفاة سليم بك تقلا مؤسس جريدة « الاهرام » وهو يصطاف مستشفياً ببيت مري بلبنان . ولما علم بشارة تقلا باشا بوفاة أخيه التمس لنفسه مساعداً لهُ في إصدار « الاهرام » . فوجد في شخص مطران بغيته فاتخذه نائباً عنهُ في القاهرة ومحرراً بدار « الاهرام »

---

(١) أنيس الخوري المقدسي في مبحث له عن النزعة العثمانية من دراسة « العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث » المقتطف م ٩٢ ج ٢ ص ١٤٢—١٤٣ (٢) الباحث نفسه في المقتطف م ٩٣ ج ٣ ص ٢١٣
(٣) المبحث السادس من هذه السلسلة فقرة ٣

يقول خليل مطران عن بدء اشتغاله بالصحافة في دار « الاهرام »

« كان سليم بك نقلا من أساتذة المدرسة البطريركية التي تلقيت فيها دروسي ببيروت. وكان له على أياد ومنن . لهو الذي ساعدني حين مررت بالاسكندرية عام ١٨٩٠ في طريقي الى أوربا وعرفني بسيزيفديوي مصر وكنت أحفظ له الكثير من الود والاخلاص في نفسي وأعلق على معرفته الشيء الكثير من الآمال . لهذا كان خبر وفاة الرجل صدمة عنيفة لي . وبلغني ان الية متجهة لاقامة حفلة جناز على روح الفقيد بالاسكندرية. وقبل اقامة حفلة الجناز بيوم واحد شعرت بدواعي التاعرية تتحرك في نفسي فمسكت القلم وكتبت في سرعة بضعة أبيات في رثاء الرجل . فلما كان الحفل سوكان يجمع أعيان مصر وكبار رجالها قدمت الى الحاضرين وألقيت كلمة تأبين للفقيد عددت فيها مآثره وذكرت فيها ما أعرفه عنه ، وتدرجت من ذلك الى القاء مرثاتي ويظهر ان كلمتي كان لها وقع عظيم عند الحاضرين . كما أنها كانت سبباً لتعرفي ببشارة تقلا باشا الذي أظهر ترحيباً كبيراً بي وبرحان ما شملني برعايته وأولاني عملا في تحرير « الاهرام » فنت بأعماله على الوجه الأكمل . فكان منه ان قدر في نشاطي واخلاصي في العمل فندبني للقاهرة نائباً عنه فيها . ذلك لان « الاهرام » كانت تصدر في ذلك الحين بالاسكندرية » (١)

إلاّ أن مطران — فيما وصل اليه علمنا — لم يغادر الاسكندرية الى القاهرة الاّ عام ١٨٩٣ ، بعد أن رافق الخديوي عباس حلمي الثاني في سفرته الأولى الى تركيا . وقد ساعدت مطران نزعته الاجتماعية على ان يتعرّف بالناس فأصبح في قليل من الزمن صاحب مكانة اجتماعية في المحيط المصري (٢). وقد أهّلتهُ هذه المكانة الاجتماعية للقيام بأعماله على احسن وجه في تحرير « الاهرام »

وربما كان الرجل قد لاقى في بدء اشتغاله بالصحافة بعض الصعوبات . لانهُ لم يكن يألف صناعة التحرير الصحافي . ولكن ليس هنالك من شك في أنهُ تغلب على هذه الصعوبات بما له من عزم ومقدرة على التطبع ومرونة على التكيّف وبهذه المؤهلات — بجانب نزعته الاجتماعية — برز مطران محرراً ممتازاً في عالم الصحافة العربية

وقد اشتغل مطران نيفاً وسبع سنوات في دار « الاهرام » حتى انتقالها عام ١٨٩٩ الى القاهرة . وقد حدث ان رغب بشارة باشا تقلا في أن يجعله رئيساً للتحرير ، غير انهُ أبى ذلك حتى يحفظ لنفسه حريتها في التفكير والعمل

وكان مطران اثناء تحريره بالاهرام يكتب كل اسبوع مقالاً في السياسة او الاجتماع او الاقتصاد او الأدب . وكانت لمقالاته هذه صداها الكبير في المجتمع المصري ، وذلك لانها كانت تكتب بطريقة جديدة فقد كان يغلب عليها التدقيق والتحقيق وتتخللها نزعات تأملية واتجاهات عالية . وكتابات الرجل السياسية كانت تكشف عن اتجاهاته الانسانية ونزعاته الاصلاحية (٣) ويظهر ان مطران تأثر بالنزعة الغالبة في مصر من التشيع لفكرة الجامعة الشرقية (٤)

(١) عن خليل مطران وأنظر من هذه الدراسة البحث الخامس : فقرة ٢ حديث الصحافي العجوز
(٢) مجلة سركيس : م ٢ ج ١١ ص ٣٢٢ (٣) صحيفة الاهرام عدد يوم ٢٨ يونيو ١٨٩٣ مقال لمطران من « حلم سياسي » (٤) أنيس الخوري المقدسي ، المقتطف : م ٩٢ ج ٢ ص ١٤٦

وذلك واضح من المقالات التي كان يكتبها معلقاً بها على حوادث الدولة العثمانية وسير الشؤون والاحوال فيها . وتتجلى هذه النزعة العثمانية في كتابات مطران . وهي اكثر ما تتضح وتستبين في شعره ، واذن فلا غرابة في ان نسمعه يقول من قصيدته (فتاة الجبل الاسود) التي نظمها[1] قبيل استقلال الجبل :

طغت امة الجبل الأسود على حكم فاتحها الأيّد

ومنها : وما الترك الا خؤول الحروب وضيعو لظاها من المولد

وهذه الحماسة العثمانية تبدو قوية في كتابات مطران وشعره الى زمن متأخر ، تراها في القصائد التي يذكر فيها حرب طرابلس الغرب وبعثات الهلال الاحمر . غير ان الحرب الظلمى والحوادث التي حفلتها في طياتها من استبداد الاتحاديين بالعرب قضت على وشائج الصلة العالقة بين نفسه وبين العثمانيين

على ان مطران مجده بعد ذلك يقف — في كتاباته في الاهرام — من الحوادث الداخلية موقف الحيدة خشية ان يميل به الرأي الى وجهة تتفق ورأي إحدى الشيع فيهم بناصرتها . لهذا كان التحوط أبرز سمات المقالات التي كان يكتبها مطران — في تلك الفترة — في الشؤون المصرية الداخلية . ويظهر أن هذه الحيطة كانت تقوم من نفسه — بجانب الأصل الطبيعي منه — بشعور الانزال كدخيل في المحيط المصري . الا أن مطران بعد تلك الفترة دخل السياسة المصرية ومال مع الحزب الوطني وناصر مصطفى كامل في جهاده القومي بقلمه

على أن حياة مطران التي ارتبطت بالصحافة طيلة هذه الفترة لم تقض على بقية مناحي نشاطه فقد أظهر في تلك الفترة نشاطاً ادبياً عاماً على شاعرية عظيمة كامنة في نفسه تفتحت براعمها في ذلك الحين . فقد نظم عدة قصائد نشر بعضها في مجلة « أنيس الجليس »[2] وهي صحيفة ادبية كانت تصدرها السيدة الكسندرا دي افريتوه وبزيغوسكا بالإسكندرية . وانت تجد بعض هذه القصائد منشوراً في صدر « ديوان الخليل » . واولى القصائد التي نشرها مطران في مجلة « انيس الجليس » ، القصة المنظومة « شهيد المروءة وشهيدة الغرام » (مجلة انيس الجليس م ١ ج ٦ ص ١٨٤ — ١٨٩ . وقد نشرها مطران بعد سنوات في المجلة المصرية : م ١ ج ١٩ ص ٨٨٦ — ٨٩٠ بعد ان اجرى فيها شيئاً من التهذيب والتشذيب . وقد اثبت الخليل في الديوان من ٦٤ — ٧٤ الصيغة المشذبة من القصيدة ، تلك التي نشرت في المجلة المصرية)

(١) ديوان الخليل ص ١٥٤ — ١٥٨ والشعراء الثلاثة للسندوبي ص ٢٧٩ — ٢٩٣ (٢) مجلة سركيس ، م ١ ج ٤ ص ٩٨

وتتالت بعد ذلك على صفحات مجلة « أنيس الجليس » قصائد له تجدها في السنوات الثلاث الاولى من المجلة (١٨٩٨ — ١٩٠١) وهي :

[« قصة بين القلب والعين » (أنيس الجليس م ٣ ج ٧ ص ٢١٥ و ٢١٦ وانقسم الاخير منها — وهو النقض والابرام — نشر في عدد ثان : ج ٨ ص ٢٠٩ — ٢١٠ وقد أثبتها الخليل في الديوان ص ٢٨ — ٣٠ بعد ان أجرى فيها تبسطاً كبيراً من التعديل) و « النجمتان » (أنيس الجليس : م ١ ج ٨ ص ٢٥٠ — ٢٥١ وتجدها في الديوان منقحة ص ٢٨ — ٣٠) و « الوردتان » (أنيس الجليس : م ١ ج ٨ ص ٢٥١ — ٢٥٣ وانظرها في الديوان منقحة ص ٣٥ — ٣٧) وقاحة في هزل (أنيس الجليس : م ١ ج ١٠ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ والديوان ص ١٦ — ١٧ وهي في الديوان منقحة) و « النرجسة » (أنيس الجليس : م ٢ ج ٨ ص ٣٠١ — ٣٠٢ والديوان ص ١٤ منقحة) و « العصفور » (أنيس الجليس م ٢ ج ١٠ ص ٣٨٧ — ٣٨٩ والمجلة المصرية م ٢ ج ٧ ص ٢٩٣ — ٢٩٥ وهي منقحة ومنها اثبت في الديوان ص ٧٩ — ٨٢) و « أشعة رتجن » (أنيس الجليس م ٢ ج ١١ ص ٤١٢ — ٤١٣ والمجلة المصرية م ٢ ج ١٦ ص ٦٨٢ — ٦٨٣ والديوان ص ١٦٨ — ١٦٩ وهي منقحة في كتا المصدرين الاخيرين) و « يوسف افندي » (أنيس الجليس : ٣ ج ٢ ص ٦٣ — ٦٤ والديوان ص ٣١ — ٣٣ منقحة) و « ان من البيان لسحرا » (أنيس الجليس : م ٣ ج ٥ ص ١٨٤ — ١٨٧ والمجلة المصرية م ٢ ج ٥ ص ١٨٥ — ١٨٨ والديوان ٣٧ — ٤١ منقحة) و « المرآة الناظرة » (أنيس الجليس : م ٣ ج ٧ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ والديوان ص ١٣ — ١٤)]

ومن الخطإ في مراجعة هذه القصائد الرجوع الى صيغها النهائية التي أفرغت فيها في « ديوان الخليل » ، اذ يجب مراجعتها في صيغها الاولى التي نشرت بمجلة « انيس الجليس » وذلك لأن الصيغ النهائية قد اخذتها القصائد بعد تشذيب جرى في فترة من الزمن تلت فترة نظمها ونشرها اولاً . وأنت إذ تراجعها في صيغها الاولى تتبين ان شاعرية الخليل كانت في ذلك العهد في طور التفتح . ومما لاشك فيه ان الخليل وجد من طبيعته الشاعرية ومن العوامل التي اكتنفته — وأهمها حبه — ما ازجى به الى عالم الشعر . ومما لا ريبة فيه ان حب الخليل جعل نفسيته تتفتح وأوتار قلبه تهتز امام مشاهد الحياة ومجاليها . وهذا يظهر من مقارنة شعره الذي نظمه في الفترة التي جاءت قبل عام ١٨٩٧ والتي سبقت تاريخ حبه بالشعر الذي قاله ايام حبه (١٨٩٧ — ١٩٠٣) او في الفترة التي جاءت بعد ذلك . بيان هذا ان حب الرجل جعله متفتح النفس يحس بأدق التيارات ويشعر بأرق الخلجات ، مما جعل له — بحكم طبيعته المعاودة من نفسه — مقدرة على تصوير خلجات النفس ولوامعها وبدراتها، الشيء الذي لم يظهر الخليل من قبل حبه براعة فيه

ويظهر من مراجعة شعر مطران في هذه الفترة انهُ كان متأثراً — الى حدٍّ كبير — بالمذهب الرومانسي . على ان تأثره بالرومانسية لم يمنع تأثره بالاخيلة الكلاسيكية والنماذج التي تذهب تحاكي الاشياء محاكاة تامة والتصورات النموذجية التي ظهر بها البرناسيون في اواخر القرن التاسع عشر بأوربا . ففي قصيدته « العصفور » و « اشعة رتجن » تجد اخيلة رومانسية ، بينما تجد في قصيدته « المرآة الناظرة » اخيلة برناسية اقرب ما تكون الى أخيلة الشاعر الفرنسي سولي برودوم . ومن ذلك يظهر أن ثقافة مطران الأدبية متعددة النواحي . ذلك لأن شاعريته

كانت تستعين بمحصوله الأدبي لتدور حول الأغراض الشعرية التي تفتح أمامها قلبه ، لتنسحب على الموضوعات التي تهزوشائج الصلة بالحياة في نفسه . وذلك ليستنزل منها أخيلتها وتصوراتها

وقد عُرف مطران في أواخر اشتغاله بالتحرير في « الأهرام » بمواهبه الشعرية ، وسرعان ما احتل مكاناً بجانب شوقي وحافظ في عالم الشعر الحديث

***

كانت حياة مطران تدور في هذه الفترة بين مهام التحرير في دار « الاهرام » التي كانت تسترق كل وقته . وقد أدى ذلك الى أنهُ لم يكن يستطيع أن ينظم الشعر أو يعالج الأدب إلاّ مسارقة من اوقات عمله . ويظهر أن مطران اختار هذا بحكم مشاغله الكثيرة فأصبح من مستلزماته. وقد كان ينظم الشعر عادة وهو جالس في زاوية منعزلة من مشرب أو ناد — وأحياناً في مكتبه — دون أن تشغله الجلبة عما هو فيه . وذلك لأنهُ اصبح في مكنته بحكم العادة ان يحصر ذهنه وان يسترسل في موضوع نثره او شعره وان يستغرق فيه طالما لا يتوجه اليه احد بحديث او كلام يقطع عليه سلسلة افكاره. ولما كان مطران ينظم الشعر بعد ان يكون قد هيأ في ذهنه الغرض بإعداد فكره مُتقدِّماً في موضوع القصيدة عملاً ، واحياناً في جزئياتها وتفاصيلها فقد كان من اليسير عليه — كلما سنحت لهُ فرصة يخلو فيها الى نفسه — أن يعاود عمله وأن يسلسل لظمهُ حتى ينتظم معهُ القصيد. ولم يكن هذا التقطع ليشتت من وحدة موضوع قصيده لأن الموضوع كان يدور في رأسه من قبل ، وكان ذهنه مهيأ له[1]

على أن نظم الخليل لشعره في فترات متقطعة يسترقها من أوقات العمل أو من سهراته ، كان يجعله في كثير من الاحيان لا ينتهي من قصائده التي يبدأها[2] ومن هنا كانت جناية أعمال الرجل على شاعريته . لذلك لم يبرز مطران في هذه الفترة غير بضع قصائد تجدها في الربع الأول من ديوانه . الاّ انهُ انطلق بعد تحرره من قيود العمل في دار « الاهرام » عام ١٨٩٩ في عالم الشعر ، فنظم في فترة لا تزيد عن الفترة الأولى ثلاثة أرباع ديوانه الذي صدر عام ١٩٠٨ . ولئن كان لهذا دلالة على أن العمل من جهة وشاعريته التي كانت في بدء تفتحها من جهة أخرى ، كانا يقفان في سبيل الرجل فلم ينظم كثيراً

—٢—

إن الفترة التي تقع بين عام ١٨٩٧ وعام ١٩٠٣ من حياة مطران — والتي يدخل نصفها الأول في الفترة الاولى من الطور الثاني من حياته — تلك التي عرضنا لها — بينما يدخل

(١) مجلة الدستور ، عدد ٩ نوفمبر ١٩٣٨ حديث مع مطران

(٢) مجلة سركيس ، م ١ ج ٤ ص ٩٧–١٠٠ قصة تاريخ الجنين الشهيد

النصف الثاني منها في الفترة الثانية منهُ — تعتبر رددحاً من الزمن عظيم الأثر، تحيي تسجل الناحية الشعورية من حياته، وهي تظهر واضحة السمات في « حكاية عاشقين » التي صب فيها مطران تاريخ حبه، والتي افرد لها مكاناً خاصًّا من ديوانه حتى يمكن تفهم حوادثها من الاشارات الشعرية ويسهل استقراء وقائعها غير مبعثرة بين متفرقات كثيرة لا صلة لها بها (١)

وتجري هذه القصة (الديوان ص ١٥٩ — ١٩٥) بين مطران وعشيقته مجرى القصص الخيالي، وهي لا يتخللها شعور دان او نزعة دنية، فقد احتفظ مطران فيها بحبه طاهراً فاصبحت بذلك قصة حبه داخلة في نطاق قصص الحب الافلاطوني (٢)

كانت حبيبة مطران فتاة . . . ذات حسن وجمال (٣) . ويظهر من مطالعة شعر الخليل فيها انها كانت فتاة غنية الاحساس قوية الشعور تفيض بهما على صاحبها وتغمره فاذا بأوتار نفسه تهتز واذا بصحته وجدانه تتكشف لها وشائج الصلة بين حياة الحب التي يحياها وحياة الطبيعة التي تبدو له في مجاليها ومشاهدها (٤)

تعرّف اليها مطران ربيع عام ١٨٩٧ في احد متنزهات القاهرة . يقول : « ان أول المعرفة كان اجتماعاً في حديقة فأتت نحلة لمتها في وجنتها فتألمت واشتكت » (٥) فتقدم منها مطران يسري عنها . ويظهر ان حب مطران لها انبعثت شرارته الاولى في نفسه منذ هذه المقابلة ، فكانت هي لشاعريته منبع الوحي حيناً والاصل الذي يغذي شعوره حيناً آخر. فقد كانت حياة مطران من قبل قاحلة لا تدور حول ما يرد على نفسه حياتها مليئة بالشعور والاحساس . فلما رآها وجد فيها الفتاة التي كانت تراود أحلامه . وظل مطران مخلصاً لها وفيًّا لذكراها يقدسها في خياله ويحمل صورتها بين جوانحه ، يتذكرها فيتحرك في صدره الشوق القديم لها فيجري دمعه . ويذكرها فيذكر معها ايام الشباب تتجري بذكرياتها حياته . ولا زال حبه القديم حتى اليوم يملأ عليه رحاب نفسه وقلبه (٦)

حرمها مطران فأولاها كل شعوره وأحاطها بكل ضروب العناية ووضع قلبه وحياته بين يديها . غير أن قليلاً من احساسه الذي تقوّم بالحيطة كان يجعله يكتم هواه بين الضلوع ولا يظهره حرصاً عليها وعلى سمعتها من الناس . وفي ذلك يقول مطران :

كتمتُ هواكِ دهراً لا لخوف وما أنا من يروّعهُ الحمام
ولكني حرصت عليكِ منهم ولو أودى بمهجتي الغرام

---

(١) الديوان ص ١٥٩ — تنبيه الناظم لحكاية عاشقين (٢) عن مطران — وانظر حكاية عاشقين (٣) عن مطران — وانظر قوله فيها من قصيدته « ليلة سعد » الديوان ص ١٦٤—١٦٩ (٤) الديوان ص ١٦٧ الشطر الثاني من قصيدته « انذار » ص ١٧٠ الابيات من ٤—٧ (٥) الديوان ص ١٦٠ المشهد الاول من حكاية « عاشقين » (٦) الدستور عدد ٩ نوفمبر ١٩٣٦ حديث مع خليل مطران

هذه النفس الصافية التي غمرها الحبّ فرأت فيه معنى الحياة [١] ما كان في مستطاعها أن تنسى في حبها ما يمكن أن يجره هذا الحب من آلام للحبيبة . لهذا كانت عناية مطران بحبيبته وبذله ما في طاقته حتى لا يسبب لها ألماً ، فكانت مقابلاته لها مسارقة في جنح الظلام أو في الضواحي وفي غير أوقات اللقاء — التي لم تكن متوافرة للعاشقين — كانت في القلب جمرة يخبئانها في الضلوع عن الناس ، ويجدان في هذا كل الشقاء ، ولكن لا يقويان على مغالبته بالاكثار من اللقاء حتى لا يفتضح حبهما ، وفي هذا نجد الشاعر يقول:

ظلت عليّ أخفيه وأشقى الى أن بات وهو بنا سقام

غير أن حبهما لم يلبث كثيراً حتى عرف لبعض أصدقائهما . فعمل بعضهم على الوقيعة بين العاشقين ، فوشوا به عندها فوجدت على حبها [٢] . وكان ان ألمّ بها داء فذهبت تستشفي في الشام ، وحدث ذلك دون أن يراها الحبيب ، فاذا به وَلِهٌ يرسل من أعماق قلبه زفرة ألمة يودعها في قصيدته « تذكار » . وتنقضي فترة من الزمن يحس فيها الشاعر بتباريح الهوى ، فيصب مشاعره في قصيدة «عتاب» التي كتبها في صيغة مناجاة شاعر لطائره . غير ان مطران وهو في غمرة آلامه يصل اليه نبأ اصابتها بداء عضال فينتفض الشاعر فيه ويتألم لها ويرسل أحاسيسه في قصيدته « روعة نبأ » . على ان مايظهر عليه من الجزع الشديد والالم يدفع ببعض أصدقائه الى أن يشيعوا خبر شفائها مبشرين مطران بذلك حتى يسكنوا من لهفه فيفرح الشاعر لابلالها من الداء ويرسل فرحه في قصيدته « تكذيب النبأ » . على انهُ بعد مدة يتنهي اليه خبر وفاتها فيصدم ويبكيها في قصائد متتاليات تستغرق الفصل الثاني من « حكاية عاشقين »

ومراجعة الشعر الذي نظمه الخليل في صاحبته وسجل فيه قصة حبه وعشقه من ناحية دلالته الوجدانية شيء ادخل في بحث نتناول فيه شعره الوجداني بدرس . لهذا نتركهُ لموضعه من دراستنا هذه . على انهُ بعد ذلك تبقى قصة حبّ مطران كما صاغها في «حكاية عاشقين » غير مستكملة الخطوط من بحثنا اذا وقفنا عند هذا الحدّ ولم نتزل بها من جهة الى مقوماتها من نفس الخليل مما يساعد على استقراء حياته ، واذا لم نصل بها الى الآثار التي تركها في نفسه من جهة أخرى . والواقع أن حبّ مطران كان عظيم الأثر في حياته . فهو يقول : « الحب ثلاثة ارباع ديوان شعري »[٣] ومعنى ذلك ان الحبّ ثلاثة ارباع حياته . لان ديوانه لم يخرج عن كونه مظهر حياته الشعورية

وأول شيء نلاحظهُ هو ان شخصية الخليل تبدو من خلال قصة عشقه ، متحوطة الأسباب

(١) الديوان ص ١٦٦ — الابيات الاخيرة من قصيدة « آدم وحواء » (٢) الديوان ص ١٧١—١٧٣ قصيدة « تذكار »

(٣) جريدة الدستور عدد ٩ نوفمبر ١٩٣٨

لا تتساق مع فورة العواطف والمشاعر وان ارسلها في قوة . وذلك راجع الى طبيعة العاودة من نفس الخليل ، التي تفسح لعقله مجالاً للتدخل في احساساته ومشاعره وتصفيتها وضبط النسب بينها وبين العقل . وهذا التحوط يبدو واضحاً في تسجيله قصة حبه في «حكاية عاشقين» في صورة كلها صدق وكلها حق. وقد وفق هو الى ذلك دون ان يهتك سرًّا او يرفع حجاباً. «تعددت في قصة حبه الاسماء التي تشير الى معشوقته وهي واحدة» (١)

على ان طبيعة العاودة من نفس مطران ، من حيث تجعله يعيد الكرة بعد الكرة على الشيء الواحد فيتزع منه مجموع اشكاله وينزل به الى مقوماته من الجزئيات والتفاصيل ، تبدو واضحة في شعره — الذي سجل فيه حبه — بما فيها من افراط من تقص للمعاني وتتبع للجزئيات ، وهذا يعتبر من جهة مظهراً من مظاهر تداخل عقل الرجل مع شعوره ، ومن جهة اخرى سبباً من أسباب فتور شعر الوجدان عنده . على انهُ بعد ذلك يرسل مشاعره في مواقف قوية — كما يتضح في بعض مقاطع من قصائده — فيجيء شعره قويًّا ممتلئاً بالشعور الملتهب وبالاحساس الشديد ، وذلك من حيث لم يتعارض عقله في شبكة انفعالاته . وهذا اوضح ما يكون في المرثاة التي نظمها حين نعيت اليه محبوبته (٢) ولئن كان كل هذا يسوق الى نتيجة قائلة ان حبّ الخليل عميق الأصل في الشعور رغم مظهره الفاتر

على ان مطران الذي حرمهُ الموت حبيبة قلبه وصدمه في حبه ، لم تتغير نظرته الى الحياة ، لان ما في الرجل من ضبط النفس والمرونة جعله يتقبل الصدمة في ألم شديد وحزن دفين الاّ ان الفكر صفّاه من حيث تداخل عقله في انفعالاته فنعهُ عن الاسترسال مع آلامه واحزانه. وان كان هذا يدل على شيء فعلى صدق نظرتنا في طبيعة انفعاله . على ان صاحبته بما كانت قد تركته في نفسه من ذكريات كانت تحضر في ذهنه كل عام فيتحرك في صدره الشجن فينظم فيها مرثاة جديدة ، وهكذا ظل مطران يرثيها كل عام مدة عشرين سنة . وهذا جعله يتقن في الرثاء ويتمكن منه حتى اصبح صاحب مقدرة على تصوير فضائل الفقيد وحكي خصائصه وتضمين شخصيته في مرثاته في صورة دقيقة لم يعرف تاريخ الادب العربي من قبل مثيلاً لها ، حتى اصبح عن حق كما اشتهر «شاعر المراثي» (٣)

على ان اثر حبه لم يقف عند هذا الحد ، فقد جعل في مكنته تصوير ادق خلجات النفس وأدق نبراتها وأشف لاءاتها وبدواتها . وذلك من حيث جعله حبه يفتح النفس دقيق الشعور يحس بأدق النبرات ويشعر بأرق الخلجات من حيث دارت حياته فترة حبه في عالم الشعور

(١) المرجع السابق ذكره . انظر تنبيه الناظم لحكاية عاشقين — الديوان ص ١٥٩ (٢) الديوان — مثال في مرآة — ص ١٨٢ — ١٨٥ وخاصة النصف الثاني من القطع الاول (٣) مجلة «عطارد باريس» Mercure de Paris

— ٣ —

في صيف عام ١٨٩٩ خرج مطران من مصر متوجهاً الى سوريا ليستنشق من جهة ويجدد اتصاله ببلدته ويحيي ذكرياته من جهة اخرى[1] وعاد مطران الى مصر بعد ان مكث هناك نحو أربعة اشهر من الزمان . ويظهر أن مطران غادر مصر مصطافاً ومستشفياً الى سوريا بعد ان انطلق من العمل في تحرير « الاهرام »[2]

وقد كانت سفرته هذه حداً فاصلاً بين عهدين من الطور الثاني من حياته: عهد الاشتغال بالصحافة في دار «الاهرام» وعهد الاستقلال في العمل في الصحافة . ومن المهم ان نقول أن هذه السفرة التي قام بها الخليل سجلها في ثلاث قصائد : الاولى في « براح مصر » والثانية في « لقاء الشام » واما الثالثة ففي « قلعة بعلبك وتذكارات الصبي » . وأنت تجد هذه القصائد في الديوان : ص ٧٤—٧٩ وقد نشرت كلها في الاصل في السنة الاولى من (المجلة المصرية) . والقصيدة الثالثة منها من اروع شعر مطران ومن أبلغ الشعر العربي الحديث

على أن مطران لم يكد يعود من سفرته من ربوع الشام الى مصر حتى شرع في الاستعداد لاصدار مجلة ادبية نصف شهرية . وفي يونيو عام ١٩٠٠ صدر العدد الأول منها حاملة اسم « المجلة المصرية » . وظلت تصدر عامين من الزمن صدر فيها نحو خمسين جزءاً . وكانت مجلة تعنى بالشعر والأدب وفنون التاريخ والزراعة . وكان يعاون الخليل في اصدارها أخوه جورج مطران . وكان مختصاً بتحرير المقالات التجارية وترجمة القصص لها . وقد نشط مطران ونشر فيها فصولاً في التاريخ من كتاب سفر « مرآة الأيام » الذي أصدره فيما بعد « عام ١٩٠٦ » كما نشر فيها بحوثاً أدبية وقصائد . وانت تجد في مجلداتها التي صدرت كل ما نشره الخليل الى ذلك الحين : معداً لنشره بعد ان أجرى فيه التهذيب والتشذيب . وفيها كذلك قصائد له لم يسبق نشرها نذكر منها :

[قصيدة « السور الكبير » (المجلة المصرية : م ١ ج ١ ص ١١—١٢ وتجدها في الديوان ص ٤٩ — ٤٣) و « قلعة بعلبك : تذكار سبي » (المجلة المصرية : م ١ ج ٢ ص ٤٥—٤٨ والديوان ص ٧٦—٧٩) و« الخامتان» (المجلة المصرية : م ١ ج ٣ ص ٨٩—٩٠ والديوان ص ٥١—٥٣) و «١٨٠٦—١٨٧٠» (المجلة المصرية : م ١ ج ٤ ص ١٢٩—١٣٣ والديوان ص ٩—١١) و « بدري وبدري السماء » (المجلة المصرية : م ١ ج ٥ ص ١٦٧—١٦٨ والديوان ص ١٤—١٥) و « مقتل يزر جمهر » (المجلة المصرية : م ١ ج ٦ ص ٢٠٦—٢٠٨ والديوان ص ٩٩ — ١٠٢) و « وفاء » (المجلة المصرية : م ١ ج ١٢ ص ٤٩٩—٥٠٣ والديوان ص ٨٤—٨٨ منشورة فيها بعد تنقيح كبير) و« الوردة والزنبقة » (المجلة المصرية : م ١ ج ١٧ ص ٧٠٤—٧٠٧ والديوان ص ١١٣—١١٥) و« وداع وسلام — براح مصر ولقاء الشام»

(١) الديوان — ٧٤ — ٧٩ أنظر تواريخ القصائد وما تحملها من مدلولات هذه المقطوعات
(٢) المبحث الخامس من هذه السلسلة ، فقرة ٢ حديث الصحافي المجوز

(المجلة المصرية : م ١ ج ١٨ ص ٧٤٤–٧٤٥ والديوان ص ٧٤–٧٦) و « الاهرام » (المجلة المصرية: م ١ ج ٢١ ص ٨٦٠–٨٦٠ والديوان ص ٨٣) و « دمعة » (المجلة المصرية : م ١ ج ٢٢ ص ٨٥٣–٨٥٤ والديوان ص ١٩٣–١٩٤) و « رثاء بشارة تقلا باشا » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٣ ص ١٠١–١٠٣ والديوان ص ١١٧–١٠٩ والابيات الاخيرة من المرثاة لم تثبت في الديوان . هذا فضلا عن ان الخليل نظم ٦ أبيات من الشعر تلاها في صلاة التاسع في الرضوانية على روح الفقيد ونجدها في المجلة المصرية في الجزء المذكور ص ٩٠ ولم يثبتها الشاعر في ديوانه) و « مشاكاة » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٤ ص ١٥٩–١٦٠ والديوان ص ١٩–٢٠) و « يوميات أدبية » (المجلة المصرية :م ٢ ج ٤ ص ١٣٧–١٤٤ والديوان ص ٩٧ – ٩٨) و « حنا الصغير » (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٢ ص ٥٢٣ والديوان ص ١٠٧–١٠٨) و « تهنئة بزفاف » (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٢ ص ٥١٠ والديوان ص ١٠٨ – ١٠٩) و « تبرئة » (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٣ ص ٥٥٣ – ٥٥٤ والديوان ص ١٩٧ – ١٩٨) و « آدم وحواء » (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٥ ص ٦٣٥–٦٣٦ والديوان ١٦٥–١٦٦) و « الزهرة » (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٢ ص ٧٢١–٧٢٣ والديوان ص ٢ ١–١٠٤) و « فنجان قهوة » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٠ ص ٨٤١–٨٤٦ والديوان ص ١٢٣–١٢٨) و « جواب كتاب هزلي » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢١ ص ٨٨٠ والديوان ص ٦٠–٦١) و « الحلة البورية » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٢ ص ٩١٩–٩٢١ والديوان ١٣٢–١٣٩) و « تهنئة زفاف » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٣ ص ٩٥٣–٩١٠ والديوان ص ١٤٢–١٤٣) و « تذكار » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٣ ص ٩٦٥–٩٦٧ والديوان ١٧١–١٧٣) و « العالم الصغير مرآة العالم الكبير » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٤ ص ٩٩٨–٩٩٩ والديوان ١٢٩–١٣٠]

وهذه القصائد نظمت خلال فترة تمتد بين نظمها ونشرها وخمسة عشر عاماً . أما القصائد التي نشرها مطران في « المجلة المصرية » وسبق نشرها من قبل فقد سبقت الاشارة اليها عندما تكلمنا عن القصائد التي نشرها مطران في مجلة « أنيس الجليس »

وقد نشر مطران ما نشره في « المجلة المصرية » مدفوعاً بداعي ان يكون له شيء من النظم يجانب ما كان ينشره لاسماعيل صبري واحمد شوقي وحافظ ابراهيم وسامي البارودي والبستاني من اعلام الشعر العربي الحديث. وكان ينشر من شعره مقطوعات صغيرة . وبدأ بما كان قد سبق له نشره من قبل بعد ان أجرى يد التنقيح فيه حتى يستوفي كماله لفظاً ومعنى . ومن هنا كان من الصعوبة في مكان معرفة الصيغ الأولى لمنظومات الخليل، لأن يد التنقيح كانت تتناول شعره القديم قبل نشره . على أننا في اثناء تعيننا في بطون متون مجلات ذلك العهد انتهينا الى أشياء ذات قيمة من حيث وقفنا على بعض قصائد مطران منشورة في حين نظمها وذلك قبل أن يتعهدها بالتنقيح ويصبها في القالب الذي افرغت فيه عند نشرها في المجلة المصرية . وسيجيء بيان ذلك مفصلاً في موضعه من دراستنا

ويستوقف النظر من كتابات مطران لذلك العهد في « المجلة المصرية » مسرحيته الهزلية « العلاج بالشنق » وهي مسرحية في فصل واحد (المجلة المصرية م ١ ج ٢٢ ص ٨٣٥ — ٨٥٠) وبضع مقالات أدبية تمتاز بمطالعاتها التقريرية . نذكر منها كلمته عن مارتيني الشاعر الايطالي مع ترجمة نثرية لقصيدته في المساء والمدينة (المجلة المصرية :م٢ج٦ص٢٥٠–٢٥٢) وبحثه عن فيكتور

(١) مجلة سركيس م ١ ج ٤ ص ٩٧ — ١٠٠

هوغو (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٧) ودراسته لأدوار الشعر الصيني (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٤) وكلمته عن الموسيقى العربية (المجلة المصرية : م ١ ج ٤) . وفي هذه الكلمة يأخذ مطران على الموسيقى العربية تشابهها . كما انك تجد له في نفس هذه المجلة بحثاً في مفهوم الأخلاق ومعنى السعادة (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢١ ص ٨٥٥ — ٨٥٨) وكلمة عن المرأة الجديدة (المجلة المصرية : م ١ ج ١٨) وذلك بعيد صدور كتاب قاسم بك امين . وخير كتابات مطران الأدبية بحثه في « الكتاب امس والكتاب اليوم » ودراسته عن « الشعر العربي » (المجلة المصرية : م ١ ج ٢) وهو في بحثه الاخير ولاسيما في ص ٤٢ — ٤٤ منه قد نظر الى مطالعات المستشرق الألماني (تيودور نولدكه) عن طبيعة الشعر العربي القديم ، التي كان تعرضها بحثاً له عن المعلقات نشره في « دائرة المعارف البريطانية »

وكتابات مطران في تلك الفترة تدل على أنهُ صاحب محصول ادبي كبير وثقافة أدبية شاملة . فقد كان الرجل يستفيد من كل صفحة يطالعها وسطر يقرؤه

على أن « المجلة المصرية » لم تقر على الصدور فاحتجبت وأصدر مطران بدلاً عنها صحيفة « الجوائب المصرية » اليومية وذلك عام ١٩٠٢ . وحياة هذه الصحيفة تنقسم الى دورين . الأول حين كان يحررها مطران ويديرها بنفسه . والثاني حين عهد بها الى عطا بك حسني فالتزم إصدارها . على انهُ في الدور الاول ساعد خليل مطران في إصدار الجوائب شقيقه جورج مطران ، وكان يحرر معهُ فيها الشيخ يوسف الخازن والشيخ علي الغاياتي . غير أن طبيعة مطران التي لم تعتد التصرف مقيدة بنظام ، جعلت شؤون الصحيفة تختل في يده فلم يقو على اصدارها بنفسه وادارتها ، فعهد بادارتها الى نفر من اصدقائه وتنقلت ادارة الصحيفة بين أيديهم حتى انتهت الى يد عطا بك حسني الذي أخذ على نفسه مسألة اصدارها وإدارتها[1] وما وجد مطران في شخص صديقه عطا بك حسني الرجل الذي يمكن أن يدير صحيفته حتى اطلق حراً من قيود العمل في الصحافة واشتغل بأثمان البورصة وشؤون التجارة والاقتصاد . على أن اشتغاله بالشؤون التجارية لم يمنعهُ من أن يساهم بين الحين والحين في امداد الصحف العربية بمصر بكتاباته ، وكان في طليعة هذه الصحف — ما عدا الجوائب — صحيفتا « الوطن » و « اللواء »[2]

***

من الاهمية بمكان ان تنظر في حياة مطران الاجتماعية وصلاته بالناس لأن ناحية كبيرة

---

(١) فيليبي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ج ٤ صفحة ٢٠٠ من قواعم الصحافة العربية — الهامش وكذا لنا المبحث الخامس فقرة ٢

(٢) الصحافي المجهول في المبحث الخامس لنا الفقرة ٢ وعبد الرحمن الرافعي في مصطفى كامل ص ٤٤

من حياة مطران دارت متلونة بصلاته الاجتماعية بالناس في المحيط الذي كان يكتنفه. فقد كان الرجل « صاحب شعور اجتماعي يتلوّن بصلاته بالناس »[١] وكان يسترسل مع هذا الشعور فينظم في اغراض اجتماعية الكثير من الشعر. وهذا ما يظهر من مطالعة ديوانه الذي يتألف جانب كبير منهُ من قصائد دارت حول اغراض اجتماعية واضحة تلونت بها مشاعره واحساساته فشارك الجماعة شعورها واندمج في جوّها وحمّل نظمه آلامها أو افراحها. ومن هنا جاء جانب كبير من شعر مطران من الأدب الاجتماعي وهذا جعله موضع اتهام عند البعض في أن أدبه : أدب الحفلات والحياة الاجتماعية ومناسباتها[٢] على أننا لا نرى في ذلك ما يدعو الى اتهام الرجل في شاعريته او في ذوقه الشعري فالرجل — كما قلنا — لا يقول الشعر الاّ عن وجدان صادق، ومرائيه ومدائحه لا تعتمد على جودة الصياغة وقوة الصناعة التي يرتفع بها البعض الى محاكاة العاطفة، وانما تقوم عنده على فيض الشعور، وشعور الرجل — كما قلنا — يتلون بصلاته الاجتماعية بالناس. ومن يطالع ديوان الخليل يرى مصداق كلامنا في الشواهد الكثيرة التي يحملها ديوانه. فقد خلق الرجل وفيه اللطف سجية والميل لمعاشرة الناس. واذا بهذا اللطف يتداخل مع ميله للمؤانسة وحبه للعاشرة فيكون محوراً تدور حوله بعض اغراض شاعريته. وليس من شأننا هنا ونحن نطوي جانباً من سيرة الرجل في فترة من الزمن أن نتوسع وندل على الشواهد التي اتخذناها واقعات انتهينا منها الى هذا النظر. فان لهذا البحث الاستقرائي مكانه من بحثنا حين نعرض لدراسة شخصية الخليل في البحث التاسع من دراستنا

على أن حياة مطران التي ذهبت تدور حول صلاته الاجتماعية مع الناس، تأثرت بما يحمله المجتمع المصري في ذلك الحين من فكرة التشيع للجامعة الثمانية. ولكن هذا التشيع — الذي اشرنا اليه من قبل — كان مقروناً عند مطران بالرغبة في صلاح الدولة واصلاح أمور رعاياها ورجوع الطمأنينة الى قلوب الناس. ولا شك ان رغبة مطران الاصلاحية تولدت في نفسه من اصطدامه بالمفاسد التي كانت تنخر في جسم الدولة العلية. ولاشك ان مطران الذي كان هدف تضييق قلم المراقبة التركية في بيروت عقب تخرجه من الكلية البطريركية — مما ألجأه بداعة ذي بدء الى مغادرة بلاده الى الخارج الى حيث لا يصل اليه تضييق السلطات التركية — لمس جانباً من جوانب خنق الحريات في نطاق الدولة العثمانية. ولا شك ان ما لاقاه في باريس من دسائس وصلت وراءه من تركيا لجعله يزمع الى مصر، وضعه في مركز يحس فيه بمقدار تسرب الفساد

(١) الرسالة — السنة السابعة عدد ٣١٠ ص ١١٧٦ — ١١٧٧ وعدد ٣١١ ص ١٢٢٤ — ١٢٢٦

(٢) الرسالة، م ٧ ج ٣٠٢ ص ٧٩٣ وروكس زايد العزوزي في المجلة الجديدة م ٦ ج ٥ ص ٣٥ — ٥٣

الى جسم الدولة ذلك الفساد الذي جعلها تهزأ فرداً من اي فكرة اصلاحية . وقد ثار مطران على هذه الحالة بغير ان شيئاً من الحيطة في نظمه جعله لا يسترسل ومشاعره فيرسلها بقوة وعنف واضحة في ثورتها على فساد الدولة . وانما كان يداور ويروح بمكنونات صدره وخلجات نفسه من خلف حجاب من الرمز والايماء . فانت تلمس في قصيدته « شبح اثينا » (الديوان ص ٢٦٤ — ٢٦٦) كيف يخرج مطران الى التاريخ ويتخذ من بعض وقائعه مادة يحتجب وراءها ويرسل مكنونات نفسه . وانت تلمس في كل بيت من ابيات هذه القصيدة روح مطران المتألمة لذل قومه الثائرة على جمودهم الساخطة على اسكانهم . فيقول :

يعبرة الدهر جاوزت المدى نيأ حتى ليأنف أن تسماه ماضينا

وتراه يندفع بعد ذلك مع شعوره حتى يرسل في نفسك شعورهُ فيعديك وينقل اليك ثورة نفسه . وتراه يطلب المزيد من الكوارث وأحداث الزمان لعلها تكون منبهة لشعبه الخامل:

فزد مصائبنا حتى تنبهنا تكن حياة لنا من حيث ترديتا

ويمكنك ان تلمس في هذا التضمين لمشاعره أغراضهُ الاصلاحية وثوراته النفسية . وذلك من وراء الحجب التي أرسل مشاعره واحساساته من خلفها فلقنها في مشاهد من التاريخ . تجدها في قصيدته عن مقتل « بزرجمهر » (الديوان ٩٩ — ١٠٢) وهو فيها يحمل حملات عنيفة على عبد الحميد طاغية تركيا . وهكذا يمكن الانتهاء الى دراسة مشاعر الرجل الوطنية في هذا الطور دراسة منتظمة دقيقة (١)

على انه يجب ألاّ ننسى مشاعر مطران ازاء القضية الوطنية المصرية التي تجدها مضمنة في قصيدة له عن « ذكرى حافظ ابراهيم » (القاها عام ١٩٣٣ بمناسبة مرور عام على وفاة حافظ ابراهيم) حين عرض لوصف النهضة القومية المصرية التي كونت حافظاً وجعلته الشاعر المطبوع المترجم عن روح مصر . ومطران يرى ان النهضة الحديثة من غرس مصطفى كامل وأنهُ تعهدها بجهاده الى ان مات وانها اينعت في بستان جهاده (٢) . وهذا ما يبدو لك من مرثاته لمصطفى كامل على انهُ يمكن ان يقال بعد ذلك ان شعور مطران سائر الشعور المصري ، من حيث اندماج في المحيط المصري مع الزمن وحمل الكثير من خصائصه وبدرات روحه . وهذا هو تفسير شعوره الوطني . ويمكن أن يزاد على ذلك فيقال ان اشتراك مصر وسوريا في ملابسات وأوضاع سياسية واجتماعية واحدة وجهاد كل منهما في سبيل الحرية ، كانا يجعلان مطران حين يتوجه لمصر ، يتوجه بمشاعره في الواقع الى مسقط رأسه ، ومن هنا كان يلبس مشاعره نحو مصر صدق التجربة

(١) روكس زايد العزيزي في المجلة الجديدة : م ٦ ج ٥ ص ٣٨ — ٤٠ في « مطران والوطنية »
(٢) عبد الرحمن الرافعي في مصطفى كامل ص ٣٩٠ — ٣٩٣

خاتمة

في عام ١٨٩٨ شرع مطران — اعتماداً على قصة رويت له وقائعها — ينظم قصيدة في الأغراض القصصية لم ينته منها الا بعد سنوات . هذه القصيدة هي قصة « الجنين الشهيد » التي نشرت عام ١٩٠٥ في (مجلة الهلال)[1] ، وهي التي خلقت لمطران شهرته الأدبية بين شعراء عصره . يقول سليم سركيس في تاريخ نظمها استناداً الى حديث له مع مطران :

« نظمها مطران وهو يتمشى في الجزيرة ومنها الى الهرم وفي يده ورقة يدون فيها خواطره حتى اذا جاء الهرم كان قد كتبها شعراً على ما ظهرت فيه من الوزن والقافية ولكن بلا تشطير وفيها خلات ناقصة وعلات لتنقيح فاستراح قليلا في ميناء هاوس . وهنا خطر له ان القافية لا تسع المعاني ولا تؤدي الفكرة التي يريدها واستصعب ان ينظمها من جديد فعاد من الهرم وهو يحسبها توسيعاً لمجال الفكر فما تمت ليلة حتى فرغ منها . ولكن كانت رمية اولى وأراد الاسراع في انجازها في الاسماعيلية وأوقات فراغه كثيرة فانتهى منها مستكملة في أسبوع وأرسلها الى صديقه الشيخ نجيب الحداد وسأله مراجعتها وتنقيح الضعيف فيها . واذا رأى نشرها في مجلة « أنيس الجليس » فلما قرأوها ان الاسكندرية هالهم أمرها واستعظموا التصريح في حقائقها وتراءت لهم فيها كلمات حسبوها غير مناسبة لمجلة نسائية فجاءه كتاب من نجيب الحداد يقول له فيه :

[مع أني راهنتك في تحرير الاهرام زمناً طويلا دهشت لما قرأت قصيدتك . أولا لانني اكتشفت أنك شاعر . وثانياً لان هذا المذهب في انتقادي هو مذهب الشاعر في المستقبل . وقد استصوبت المديرة — يعني صاحبة مجلة أنيس الجليس — ان لا تنشرها لان في بعض ألفاظها ما يظن به تجاوز الاصطلاحات المعروفة فأرجو ان تنشرها في مجلة او جريدة أخرى منتشرة جداً لتطلع بقراً جديداً على الشعر العربي] .

واجتمع مطران في مشرب بجماعة من الاصدقاء فقرأها عليهم فألح قوم بنشرها فقال : ماهذا أوانها . واستأذنه آخر ان يقرأها على حدة واذ ذاك لسعها وبعد ايام تفاقمت الالسن بعض أبياتها . وألح عليه الادباء ان يذيعها فلما رأى منهم هذه العناية قصد ان يجمعها كاملة فطواها على ان يزيدها تحبيكاً ، ولكن عرضت له شواغل منعته عن الشعر طويلا . ولبثت مطوية محوصلتين من زمان حتى أنشأ — المجلة المصرية — وأراد نشر شيء من طريفته في النظم يجانب ما تنشره اصدقاؤه فيها . فأخذ ينشر مقطوعات صغيرة ، وبدأ بتنقيح قصيدته حتى استوفى كمالها معنى ولفظاً . وجاء صيف عام ١٩٠٣ فسافر الى الاسكندرية وأقعده المرض فما انتقل من بيته فتذكر القصيدة مع قصيدة أخرى اكبر منها اسمها « تركي مهيب » وهي قصيدة رجل بدوي لولا انه من رجالات العرب لجاز ان يكون نابليون او تيمورلنك . كتب منها سبعمائة بيت وكانت همزية مسبعة فراجع ذاكرته استبقاء للقصيدتين فلم يش من الثانية الا بيتين . وأما الجنين الشهيد فحفره منها أبيات كثيرة . وحدث أن تعطلت المجلة وشغلته الجوائب اليومية وقل نظمه حتى ندر وبينما هو يفتش في أوراقه عند نقل الجوائب عثر على نسخة من القصيدة غير منقحة من الاصل فلما أراد أصدقاؤه ان ينشرها قدمها على علاتها كما يرى من كتابة أبياتها . » (٢)

---

(١) الهلال . السنة ١٣ ج ٨ (مايو ١٩٠٥) ص ٤٦٨ — ٤٨١

(٢) مجلة سركيس : م ١ ج ٤ ص ٩٧ — ١٠٠

وما انتشرت القصيدة حتى ثارت من حولها الاقلام وكتب عنها صاحب مجلة سركيس : « انها الياذة الشعر الحاضر ومعلقة النهضة الشعرية العصرية » (١) . وارتأى اعلام الأدب في عصره « انها فتح جديد في عالم الشعر العربي » . وكانت هذه القصيدة سبباً في اشتهار اسم الخليل . في ذلك الوقت كان الخليل في غمرة من مشاغله لا يجد من وقته فسحة للنظم ؛ فندر شعره ، وما كان ينظمه من الشعر ، كان يكتبهُ مسارقة من اوقات عمله يخلو الى نفسه قليلاً ويقيد بعض الابيات مسارقة من العمل ثم يعود الى اشغاله وهكذا حتى ينظم القصيدة في أيام . ولم يكن مطران يعنى بنشر شيء من شعره في المجلات لذلك العهد . فاجتمع عنده من هذا القليل الذي نظمهُ طائفة عمدت مجلة « سركيس » الى نشرها عند بدء صدورها . وأنت تجد في مجلداتها الشيء الكثير من شعر مطران نذكر منها

[« فالوذج برتقال » (مجلة سركيس : م ١ ج ٢ ص ٣٧ والديوان ٢٣١) و « شغف وظمأ » (مجلة سركيس : م ١ ج ٢ ص ٣٧ والديوان ١٦٣) و « جمال النفس » (مجلة سركيس : م ١ ج ٤ ص ٢٠٢ والديوان ص ٣٧) و « نفحة الزهر » (مجلة سركيس : م ١ ج ٥ ص ٣٥١ ــ ٣٥٤ والديوان ١٤٥ ــ ١٤٨ و « نصيحة » (مجلة سركيس : م ١ ج ١٥ ص ٤٨٠ والديوان ص ٣٦) والنقاب (مجلة سركيس : م ١ ج ١٦ ص ٤٨٩ ــ ٤٩٣ والديوان ٩٢ ــ ٩٧) و « الزنبقة » (مجلة سركيس : م ١ ج ١٧ ص ٥١٨ والديوان ١٣ ــ ٣١) و « رسالة مفاكهة » (مجلة سركيس : م ١ ج ٢ ص ٦٣٦ ــ ٦٣٨ والديوان ١٤٤ ــ ١٤٦) و « عرس قانا » (مجلة سركيس : م ٢ ج ١٢ ص ٣٦٩ ــ ٣٧١ والديوان ٢٦٩ ــ ٢٧٠) و « نشاب » (مجلة سركيس : م ٢ ج ٢٢ ص ٧٠٠ ــ ٧٠٣ والديوان ١٧٥ ــ ١٧٩ وهذه القصيدة القيت في دار التمثيل العربي مساء ١٨ مارس ١٩٠٦]

وقد نشرت جميع هذه القصائد في الديوان . على اننا نجد مطران بعد ذلك يضرب عن نشر شيء من شعره مدة من الزمن ويستجمع لشاطه ويخرج للناس سفر (مرآة الايام) عام ١٩٠٦ في مجلدين كبيرين عن التاريخ العام . وقد كان مطران قد نشر بعض فصوله مبعثرة من قبل في « المجلة المصرية » ايام كانت تصدر

وفي عام ١٩٠٨ جمع مطران كل ما نظمهُ من الشعر الى ذلك الحين وقدمهُ للناس في مجموعة تحمل اسم « ديوان الخليل » . ويستوقف النظر من الديوان ترتيب قصائده الزمني ، غير أن التواريخ التي حلّاها الخليل أواخر قصائده على انها تفيد زمن النظم ليست دقيقة في عمومها ، فبينما نجد انهُ نشر قصيدته القصصية « شهيد المروءة وشهيدة الغرام » في مجلة « انيس الجليس » عام ١٨٩٨ (م ١ ج ٦ ــ ٣٠ يونيو) نجده يعطي القصيدة تاريخاً متأخراً يجعلها من آثار شهر يوليوسنة ١٨٩٩ (الديوان ص ٧٤) . وهذه مثال واحد من أمثلة كثيرة يمكن ان نسوقها

(١) مجلة سركيس م ١ ج ٤ ص ٩٧

للدلالة على أن الترتيب الزمني لشعر الخليل في الديوان تقريبي . لذا يستحسن أن يرجع في ترتيب شعره الى جانب النقد الخارجي الذي يتناول سند القصيدة الزمني — أي تاريخها الخاص — الى النقد الداخلي الذي يتناول القصيدة من جهة المادة والأسلوب والذي يضعها في مكانها بين آثار الخليل

على انهُ يمكن ان يقال بصدد صدور ديوان الخليل في ذلك الحين انهُ احدث أثراً لم يحدثهُ صدور ديوان من قبل . وما كان مذهب الخليل ليذيع فيتأثره أدباء الشباب لو لم يجمع الخليل شعره في مجموعة ، لأنها وهي في ديوان أدل على اغراضه ومناحي مذهبه منها وهي متفرقة في بطون المجلات والصحف . وقد لاقى الديوان حظهُ من الذيوع . وقد كتب في حينه الفنون الجميل فصلاً طويلاً عنهُ في الهلال (م ١٦ ج ٩ ص ٥٣١—٥٣٩) كما نشر احمد زكي ابوشادي فصلاً آخر تجده منشوراً في كتابه (اصداء الحياة ص ٦ - ٢٥)

وقد عمد مطران الى الهدوء بعد نشر ديوانه فلم ينظم الاَّ قليلاً . على ان شعره الذي نظمه بعد ان اصدر ديوانه تجد نماذج منه في « مجلة الزهور » « التي اصدرها الطون بك الجميل عام ١٩١١ . واهم النماذج التي نشرها فيها قصيدتان : الاولى « الزهرات الثلاث » (الزهور م ٢ ج ٢ ص ٥٦—٥٨ والشعراء الثلاثة للسندوبي ص ٣٤٧ — ٣٤٨) والثانية « اقرار وعتاب » (الزهور م ٢ ج ٨ ص ٤٣٥ — ٤٣٩) وهذه القصيدة قالها في تكريم قرينه نجلا صاغ . كما تجد له قصيدة في « وداع محمد عبد الهادي بك الجندي » (الشعراء الثلاثة ص ٢٨٤ — ٢٨٦) القاها في حفل وداع له في الجمعة الكبرى عام ١٩٠٩ . وله قصيدة رثاء في الشيخ علي يوسف (الشعراء الثلاثة ص ٢٧٤ — ٢٧٧ القاها في حفل الاربعين ٥ ديسمبر ١٩١٣) . كما له قصائد متفرقات تجدها في كتاب الشعراء الثلاثة اهمها مرثاته لجورجي زيدان (الشعراء الثلاثة ص ٣٠٢—٣٠٣ وفي « سبيل الهلال الاحمر » (الشعراء الثلاثة ص ٣٠٨— ٣١١) « ووداع لبعثات الهلال الاحمر » (الشعراء الثلاثة ص ٣١٤) وهاتان القصيدتان نظمهما في ابان الحرب الطرابلسية بين تركيا وايطاليا . كما أنك تجد له قصيدة رثيفة عنوانها « الأسد الباكي » (الشعراء الثلاثة ٣١٥ — ٣١٦) وقد نظمها وهو في مصر الجديدة (محمد تيمور في حياتنا التمثيلية ص ١٠٦) .

وباشتغال مطران بالشعر هذا العهد الطويل سلك فيه مسلكاً جديداً — وسلوكه ان لم يشرعهُ اولاً لذوق الشعراء فقد اعترف به مع الزمن كما يقول محمد تيمور — فأصبح من فحول شعراء المعاني الذين يرتفعون بوحيهم الى سماء الخيال[1] . وقد عرف ذلك الزمن هذه الحقيقة فظهر في كتابات أدبائه وأعلامه تقدير الرجل ومزاياه

(١) محمد تيمور — حياتنا التمثيلية : فصل عاكسة خليل مطران ص ١٠٥